البعد البراغماتي لـ"مشروع للسلام الدائم" عند إيمانويل كانط

دعاء نصار[1]، سوزان الدبابسه[2]

ملخّص

تتبنى هذه الورقة دراسة وتحليل البعد البراغماتي لـ " مشروع للسلام الدائم" Perpetual peace عند الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804) حيث يتم تتبع نصوص المشروع بمهمة تحليلية تقتضي الوصول إلى الإمكان العملي لقواعد كانط في السلام التي تركز على التأصيل لفكرة السلام من خلال الربط ما بين المبادئ القيمية والفعل السياسي. تتبع الورقة مشكلة أساسية وهي البحث في إمكانية وجود بعد براغماتي لمشروع السلام الدائم عند كانط، على الرغم من التداعيات التي ترتبط بطروحات كانط في العقلانية التي تظهر على أنها أبعد من أن تهتم بالنتائج العملية، خصوصاً من خلال اهتمام كانط بشكل أساسي بالمقاصد أكثر من النتائج، وهو ما شكل تحدياً في إمكانية إثبات أن كانط في مشروعة السياسي، كان قد استطاع أن يحقق انسجاماً بين القواعد المؤسسة للسلم العالمي وبين نتائجه العملية الأثر. تهدف الورقة إلى تبني مهمة تحليلية لنصوص مشروع كانط للسلام، وتتبعها بوساطة تسليط الضوء على مقاصد كانط السياسية من خلال هذه النصوص والكشف عن الروح الأخلاقية المتضمنة في داخلها على الرغم من اعتبار تلك القواعد ذات مضامين عقلانية. تصل الورقة إلى نتيجة مفادها وجود بعد براغماتي لمشروع السلام الدائم عند كانط، استطاع أن يكون مجالاً حياً للواجب الأخلاقي متمكناً في نتائج عملية ممكنة على الصعيد السياسي والدولي.

الكلمات الدالة: السلام، السلام الدائم، كانط، البراغماتية.

المقدمة

قدّم مشروع للسلام الدائم لإيمانويل كانط نموذجاً للفلسفة السياسية ضمن إطار النسق العقلاني الذي ابتدعه في الفلسفة الغربية أو فلسفة عصر التنوير على وجه الخصوص. حيث إن النسق الفلسفي الكانطي اختزل نظرية المعرفة والأخلاق بشكل كبير ضمن إطار ملكات العقل التي تجزأت في كتبه: نقد العقل المحض، نقد العقل العملي، ونقد ملكة الحكم. ولا بد أنه حقق انسجاماً واضحاً في هذا النسق؛ ولا نكاد نذكر فلسفة كانط إلا ومعها العقلانية الصارمة سواء في نظرية المعرفة أو الأخلاق، وبما أن هدفنا في هذه المحاولة البحثية الدخول إلى عوالم الفلسفة السياسية من خلال نصوص كتاب "مشروع للسلام الدائم"، فهذا يعني أننا أمام تداعٍ أولي بأن هذه النصوص لن تخلو أبداً من التطبيق العقلاني، والتعميم كما عهدناه في أخلاق الواجب.

الفكرة الأساسية من الدراسة: إعادة قراءة مشروع للسلام الدائم من وجهة نظر معاصرة.

اقتضت مهمة هذا البحث تحليل النصوص نصوص مشروع السلام، والبحث في تضميناته الداخلية، والبحث فيه من خلال وجهة نظر معاصرة للوصول إلى إمكانية تطبيق مشروع كانط للسلام على الإشكاليات السياسية الحاضرة في العالم المعاصر.

مشكلة الدراسة: إمكان قراءة المشروع الكانطي من وجهة نظر براغماتية.

تكمن مشكلة الدراسة في إمكان البحث في البعد العملي أو

[1]محاضر غير متفرغ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن
duaanassar8@gmail.com
[2]محاضر غير متفرغ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن
s.talouza@gmail.com
تاريخ استلام البحث 2023/11/6 وتاريخ قبوله 2024/2/22.

© 2024 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

النتائج العملية لمشروع السلام الدائم عند كانط، والسبب يعود إلى أن مشروع كانط يحمل صفة طوباوية لا يمكن إنكارها، في ضوء احتمالات الواقع وشرعية الدبلوماسية السياسية في تحقيق المصالح، خصوصاً أن مقولة السلام مقولة نسبية في حال الدفاع عن الأرض أو الحفاظ على الحقوق، فكل طرف من أطراف النزاع يرى أنه على حق، وأن السلام في حالة الحرب يقتضي تنازلات يريدها طرفا النزاع، وتكاد هذه التنازلات تكون معدومة، بسبب أحقية كل طرف بالحصول على الاستحقاق الدولي أو العدالة، لذا، تقف عبارة " السلام الدائم" أمام تساؤلات حول إمكانية تحققها في ضوء التغيرات والأزمات الدولية والسياسية.

سؤال الدراسة: شرعية انسجام فلسفة كانط السياسية مع البراغماتية.

تسعى الدراسة من خلال مهمة تحليلية ونقدية إلى الإجابة عن سؤال أساسي وهو: ما هو البعد البراغماتي لمشروع السلام الدائم عند كانط؟ وهل هذا السؤال ممكن في ضوء التداعيات الفلسفية حول طروحات كانط المنسجمة مع الفكر العقلاني، والذي يكاد يكون متمركزاً حول المقاصد والمبادئ والقواعد بغض النظر عن النتائج العملية لها؟

فرضية الدراسة: النتائج العملية لمشروع كانط السياسي.

من خلال هذا السؤال نحقق فرضية الدراسة الأساسية وهي الوجود العملي والتطبيقي لنسق كانط الفلسفي على الرغم من اعتباره نسقاً عقلانياً مثالياً لايمكن أن ينسجم مع الواقع بشكل كاف.

أهداف ونتائج الدراسة: الوصول إلى نقطة اتفاق حول شرعية قراءة الطرح السياسي الكانطي من وجهة نظر عملية

إذ إننا نحاكي الفعل الفلسفي في الوصول إلى النتائج بحيث نكون حذرين في الحكم النهائي على أن كانط استطاع فعلاً أن يؤدي مهام عقلانية بنتائج ذات أثر عملي براغماتي، لذا نحاول في هذه الدراسة القول بأن هناك مواقع استطاع كانط من خلالها أن يؤدي مهمة عملية واضحة، إلا أنها لم تخلُ من ملامح مثالية لا تنفك عن التركيز على القواعد بحد ذاتها بغض النظر عن التحقق العملي.

أولاً: مفهوم السلام: الأبعاد الفلسفية

يتضمن كتاب مشروع للسلام الدائم عدة معاهدات تهدف إلى تحقيق السلم بدلاً من الحرب، وقد جاء بمثابة طريقة للتوفيق بين استقلال الحكومات والتنظيم الدولي، الذي من شأنه تحقيق السلم، وهذه الرؤيا تحققت من قبل كانط بعد الثورة الفرنسية French Revolution عام1789التي قضت على الحكم المطلق، وصاغت مبادئ الحريات وضمان الحقوق والواجبات، ولا يخفى أن الحاجة الملحة إلى الدخول في نصوص هذا المشروع تقتضي أن يتم تجاوز البعد النظري لبنوده، حيث لن تتم قراءة المشروع بعيون أكاديمية تحليلية وإنما بعيون منهجية مختلفة وهي المنهجية البراغماتية، حيث إن مشروع كانط للسلام الدائم، لا يخلو من البعد النظري الطوباوي الذي يهدف إلى تحقيق السلام الشامل والنهائي للعالم بأسره، لذا تكمن مهمة هذا البحث في الكشف عن البعد البراغماتي لهذا المشروع، والسؤال فيما إذا كان هناك أي بعد عملي واقعي ذي نتائج وأثر نفعي للمستقبل من خلال هذا المشروع، أم أن هذا البعد البراغماتي معدوم، وأن كانط لم تكن لديه أي نية في تحقيق ذلك البعد، بل جعل نفسه في صفوف المنظرين الذي رسموا الخطوط الأولية لضمان شكل مثالي للدولة دون حساب أي نتائج على المدى البعيد.

يساهم البحث في مفهوم السلام Peace في الكشف عن توظيف المفهوم في النقاشات الأخلاقية والاجتماعية، وعلى الرغم من إمكانية تعريف مفهوم السلام إلا أنه يعد من المفاهيم العصية على التعريف بشكل مباشر، حيث "يعد السلام مثل العديد من المصطلحات المجردة، يصعب تعريفه، مثل السعادة والعدالة والحرية، وغيرها من المفاهيم النظرية، حيث إن السلام مفهوم غالباً ما ندركه بغيابه".(Weble, 2020, p5) وهنا نفهم فكرة غياب الحرب أو العنف أو الإقصاء أو أي ممارسة من ممارسات البشر ضد بعضهم البعض، إلا أن صيغة السلام هذه تمكننا من افتراض مفهوم مختلف للسلام، وهو ما يحيلنا إلى السؤال التالي: هل نقصد بالسلام الذي نهدف إليه في التعاملات السياسية والمعاهدات الدولية غياب الحرب، أم للسلام انعكاسات مختلفة، تؤدي إلى تمكين حضور الهوية الفردية

والكرامة الإنسانية؟

نفهم السلام بوصفه نتيجة لوعي البشر بالمساواة بين بعضهم البعض سواء في الكرامة أو الحقوق أو الغرض وهو بدوره يحقق ضبطاً للنفس يمنع أي نوع من الأذى أو العنف أو الإقصاء، وبالتالي إعلان حالة الحرب، وهنا يحتل مفهوم السلام بشكل ضمني العديد من النصوص الفلسفية التي تتجه بشكل مباشر إلى المشكلات المرتبطة بالعلاقات البشرية داخل منظومة الدولة، والتي يعد عدم تمكين السلام واحداً من أسبابها، ففي نص العقد الاجتماعي عند جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (1712–1778) مثلاً، يظهر السلام مختزلاً في الميثاق الاجتماعي بين السلطة والشعب، ويمتد إلى حق الحياة والموت، والقانون والملكية، والديمقراطية، فيجب "أن يقوم كل واحد بواجبه، ويخضع الشعب للقوانين، ويكون الحكام صالحين عفيفين، ويستخف الجند بالموت، ولا يكون هناك زهو ولا ترف".(روسو، 2015، ص235).

إن تحقق هذه الحالة تحت منظومة العقد الاجتماعي، يعد مجالاً لفهم التأصيل الفلسفي لمفهوم السلام الذي غالباً ما يكون نتيجة مختزلة في العديد من التشريعات والتصرفات السياسية والاجتماعية، لذا لا يمكن تجاهل حضور السلام بوصفه نتيجة مرادة لجميع العلاقات البشرية.

انطلاقاً من ذلك، يمكن القول: إن عملية تحقيق السلام باتت من القواعد المهمة، في حالة السلم والحرب، بحيث يكون تحقيقه مرهوناً بمنع العنف، الأمر الذي يمكن البشر من الوعي بكرامتهم وقيمتهم كمواطنين في الدولة، بالتالي نصل إلى نتيجة مفادها أن السلام لا يمكن أن يعرّف بالسلب أي بوصفه تعليقاً للحرب أو منع العنف، وإنما بات السلام مراداً ونتيجة، وحلاً للأزمات والعلاقات البشرية، وفي الوقت نفسه بات السلام يحتل قيمة أخلاقية وسياسية فلسفياً تجلّت في مشروع السلام الدائم عند كانط، الذي بنى نسقه الفلسفي بناء على رؤية معرفية وأخلاقية عقلانية، ومطلقة، وشمولية.

ثانياً: الأصول المفاهيمية والنظرية لمشروع السلام الدائم.

لمشروع السلام الدائم عند كانط، أبعاد كثيرة تنتهي بالقول بالمبدأ المطلق لحالة السلم، بناء على أساس مفاهيمي وإطار نظري احتكم إليه كانط في ابتداع مشروعه، الأمر الذي ألحق بكانط انتقادات عديدة تتجه إلى رفض ما يسمى بالقول بالسلام المطلق، ضمن حوادث الصيرورة التي تؤثر على العالم وعملية تضارب المصالح، الأمر الذي جعل هناك حاجة ملحة إلى السؤال التالي: كيف نقرأ مشروع السلام الكانطي من وجهة نظر براغماتية؟ وما هو جدواه العملي؟

لذلك لا بد من تقسيم تلك الأصول المفاهيمية والنظرية لمشروع السلام الدائم عند كانط إلى قسمين يندرج تحتهما النص الأساسي لمواد المشروع:

- **المبدأ المطلق لحالة السلم.**

في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، يوضح الفارابي (874–950) فكرة حاجة البشر للاجتماع والتعاون، في إشارة منه إلى المعنى الجوهري لمفهوم المجتمع داخل الدولة، على اعتبار أن الدولة هي المجال الضامن لعلاقات البشر داخل وحدة واحدة ضمن حالة من السلام ليتحقق بذلك مفهوم المدينة الفاضلة؛ فـ "المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة، والاجتماع الذي به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل". (الفارابي،2017، ص70).

يوجهنا نص الفارابي إلى فكرة الفضيلة، وهي الفكرة التي تعطي انطباعاً مثالياً للقيم، حيث تساهم هذه المثالية في التأثير على الحاجة إلى بلوغها، إلا أنها تثير انطباعاً بصعوبة تحقيقها في الواقع، وهنا لو أحدثنا مقارنة بين خطاب الفضيلة المثالي الذي يدعو إليه الفارابي، والعالم الحديث، نجد أن توظيف هذا الخطاب يكاد يكون غير ممكن بشكل مطلق. هذا يدفعنا للبحث حول إمكانية أن ينسحب هذا الحكم على ما قدمه إيمانويل كانط من خطاب مثالي حول مفهوم السلام، والذي نستمد مثاليته من ديمومته التي يدعو إليها كانط باستمرار، حيث "إن معاهدة من معاهدات السلام لا تعد معاهدة إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة الحرب من جديد." (كانط، 1952، ص25).

يضع كانط مجموعة من القواعد لتمكين السلام الدائم، حيث يعتبر أن السلم حالة الإنسان الناتجة عن نقيضها وهو الحرب، أي أن السلم يدخل في صراع مع الحرب، كأساس إجرائي يتخذه الإنسان بطبيعته؛ من أجل تسوية الخلافات والصراعات، وهنا يأتي السلم بمعنى التسوية المؤقتة لحل

الإشكال الحادث في حينه، وبما أنه إجرائي فمعنى ذلك أن مدته قصيرة، ومن الممكن أن يعود الإنسان إلى حالة الحرب في أي وقت بعد انقضاء فترة التسوية تلك، وهذا ما يرفضه كانط تماماً، إذ يعتبر أنه ليس من الممكن أن يقوم السلم بناء على نية إثارة الحرب من جديد.

يتبنى كانط رؤية مستقبلية حول الحرب، بحيث تكون قواعد السلام، مثل قواعد العقل العملي، تتخذ صفة شمولية ومطلقة وإلزامية للعقل، وهو ما يحيلنا إلى الاستنتاج أن كانط، يحقق من خلال مقولة السلام ما يحققه معرفياً من خلال مقولة الواجب. ليكون قاعدة نهائية تحتكم إليها تسوية الصراعات، وليس نقطة مؤقتة وحسب، إذ إن الحالة الطبيعية للإنسان تناقض دوام حالة السلم، لذا تحتاج إلى إلزام دائم لا بد أن يتحقق بشكل مستمر، ولا ينتهي عند معاني الهدنة أو السلم المؤقت. وهنا ومن خلال هذا البعد نلاحظ أن كانط لا يختلف عن فلاسفة العقد الاجتماعي، على سبيل المثال: هوبز، وروسو، ولوك الذين ردوا إلى حالة الإنسان الطبيعية ليصوغوا القوانين المدنية، والتي اختزلت بفكرة العقد الاجتماعي.

- **القواعد المؤسسة للاتفاق السياسي.**

فى كتابه "قانون الشعوب" يوضح جون رولز John Rawls (1921–2002) معنى التسامح، كحاجة لوجوده ضمن القانون بحيث يؤخذ بعين الاعتبار معنى التعددية السياسية الموجودة بين المواطنين في المجتمع الليبرالي حيث يحقق نوع من العدالة السياسية (رولز، 2007، ص93).

يقودنا هذا الطرح في تصورات الفلسفة السياسة المعاصرة إلى فهم التوجه المستمر لصياغة القواعد الموجهة لتحقيق التسامح، الذي بدوره يعبر عن السلام، الذي يتضمن داخل المجتمع في العلاقات القائمة على التعددية والاختلاف، والتي بدورها قد تكون طرفاً لا يستهان به لشن الحرب وفرض النزاع، وهنا نحقق مقاربة ضمن مفهوم القواعد المؤسسة للاتفاق السياسي، إلى البناء العام لعناصر تشكيل المشروع الكانطي حول السلام الدائم، بمعنى أن كانط أراد أن يجعل هناك بيئة مفاهيمية لعناصر تشكيل المشروع، حيث تبنى كانط الإشارة إلى عدة مفاهيم تشكل عناصر مهمة لقواعد السلام، وهي: مفهوم الدولة والجيش والحرب والسلطة. وهي المفاهيم الأساسية التي وضعها كانط من أجل تحقيق انسجام بين تلك المفاهيم كما عبّر عنها وبين مشروع السلام الدائم؛ لذلك حدد كانط مفهوم الدولة على أنها الدولة المستقلة عن أي حق في استنزافها، أو فرض أي قيود اقتصادية معينة عليها من أجل الدخول في الحرب، أو الإضرار باقتصادها من خلال تراكم الديون المفروضة عليها من أجل الدخول في الحرب كذلك[1]. (كانط، 1952، صص 26–32).

وهذا المفهوم الذي صاغه كانط بين يجب ولا يجب يعطينا ملمحاً وضح قواعد بناء أو شكل الدولة التي تحمل إمكانية الدخول في معاهدة السلام الدائم، أما عن الجيش والسلطة والحرب، فإن كانط وجد أن السلطة هي سلطة الدولة المستقلة بذاتها، البعيدة عن أي استنزاف أو تطويع لسلطة خارجية مضادة تريد الحرب، لذلك فتلك السلطة المستقلة يجب أن تتبع مبادئ حماية الدولة من أي حرب ممكنة، وفي حال دخلت هذه الدولة في حرب فلا يجب عليها أن تستبيح الدولة المعادية وأن ترتكب جرائم حرب، وهنا كانط يريد أن يوضح لنا مفهوم الحرب حيث يقول: "إن الحرب ما هي إلا وسيلة تعسة يلجأ إليها المرء مضطراً، لإقرار حقه بالقوة وهو في الفطرة، حيث لا وجود لمحاكم تفصل في الأمور بقوة القانون" (كانط، 1952، ص33).

وهنا يحاول كانط الإقرار بأن الحرب بهذا المفهوم يجب أن تكون بعيدةً عن التصور، حيث إنها حرب إبادة وتأديب، وهنا يريد كانط أن يرفض أي محاولة لتعريف الحرب بأي شكل من الأشكال، فالحرب ليست مشروعة، ويجب إحلال السلام بدلاً منها.

نفهم أن كانط صاغ الأساس الفلسفي الثاني للمشروع، والذي يقتضي صياغة القواعد التي تنظم عناصر المشروع، وتلك القواعد صارمة وعقلانية ولا نهائية، ولا تتضمن أي استثناء، وهنا نتأكد من أن كانط بقي منسجماً مع نسقه الفلسفي، حيث إنه لم يراعِ أي حادثاً قد يخرق قواعد القانون، إن القواعد التي صاغها معممة، بمعنى ثلاث كلمات: لا للحرب بشكل مطلق، نعم للسلم بشكل مطلق، الدولة يجب أن تكون مستقلة بشكل مطلق.

[1] أنظر: المعاهدة الثانية وحتى المعاهدة الرابعة.

ثالثاً: معاهدات السلم والحرب: مقاربة تحليلية للنصوص.

في هذا السياق لا بد من الدخول إلى عوالم المواد النهائية للمشروع والتي تعتبر جوهره، فبعد التأسيس الفلسفي الذي صاغه من خلال البنود الأولية، يتجه كانط إلى أن يتعمق أكثر من خلال تحقيق سلام دائم بين الدول، وهنا ليس من أجل البحث عن الأسس الفلسفية، بل من أجل تحقيق مقاربة تحليلية للنصوص.

والسؤال حول الإشكال الحادث في سياق بنود معاهدة السلام الكانطي الذي يقضي أن هناك اختلافاً حول العلاقة بين ما يمكن أن يطلق عليه بشكل عام "دولة" والجوانب العالمية لعلاقات الدول، حيث حاول كانط من خلال هذا الجهد تبني مسؤولية إيجاد حلول للحرب دون تجاوز نظام الدولة من دون تحسين، ولا يخفى أن كانط قد استعمل هذا الجهد بما وينسجم مع البيئة العامة للقانون والسياسة في القرن الثامن عشر (Gallie, 2009, p10). بنى كانط على المعاهدات النهائية في المشروع، النموذج الأمثل بنظره لشكل الحكم في الدولة وذلك لغاية تحقيق الانسجام بين شكل الحكم وغاية السلام حيث تنص المعاهدة النهائية الأولى على ما يأتي: "يجب أن يكون دستور المدينة في كل دولة دستوراً جمهورياً". (كانط، 1952، ص41).

ما الذي يقصده كانط من هذه المعاهدة التي تحمل وجوباً وفرضاً؟ إن كانط يؤيد نظام الحكم الجمهوري مقابل نظام الحكم الملكي، حيث يقتضي الأول وجود الحرية للمواطنين، بمعنى أن الدولة ليست ملكاً لرئيس الجمهورية، وللمواطنين الحق في الموافقة على أي مشروع يطرحه الرئيس، حيث استغل كانط هذه النقطة لغاية الإقرار أن في حالة حدوث حرب، فإن المواطنين لهم الحق في الموافقة أو الرفض، مما سيأخذ مساحة من الزمن تقتضي أن يتم تجاهل فكرة الحرب من خلالها واستبدالها بالسلام، في حين أن الحكم الملكي يقتضي أن يكون الملك هو المسؤول عن الدولة وله الحق في اتخاذ أي قرار دون الرجوع إلى المواطنين، حيث لن يكون هناك مجال من الزمن للتفكير، وستتحمل الدولة عواقب الحرب من خسائر تحيلها إلى أزمة اقتصادية.

وهنا نجد تأييد كانط للنظام الجمهوري الذي يقتضي انسجاماً مع معاهدة السلام الخاصة به، وهنا يطرح السؤال التالي: كيف يتصور كانط القانون في ضوء مشروعه؟ إن هذا يحيلنا إلى المعاهدة النهائية الثانية والتي تنص على ما يأتي: " ينبغي أن يقوم قانون الشعوب على أساس نظام اتحادي بين دول حرة"(كانط، 1952، ص51).

يقيم كانط هذه المعاهدة من وجهة نظر عقلانية تضمن أن يكون للشعوب قانون يحميهم ويضمن حقوقهم، ولكن أن يكون هذا القانون بناء على تشاركية ما بين الدول الحرة، بحيث تعد هذه التشاركية أو الاتحاد وجهاً من وجوه ضمان عدم حدوث حرب في المستقبل، حيث يكون للشعوب الحق في عدم إقرار الحرب أو الموافقة عليها، وهنا يؤكد كانط أن لو كان للشعوب حق تأييد الحرب في دولهم فلن يكون هذا الحق معنىً مطلقاً (كانط، 1952، ص57).

وهنا ومن خلال هذه المعاهدة يبني كانط التنظير الفلسفي الأول لفكرة "معاهدة السلام" تلك المعاهدة التي تقتضي الاتفاق بين أطراف متنازعة على إيقاف الحرب وعدم تمكين أي نزاع محتمل مع الإشارة إلى أهمية عقد تعاون في مشاريع مشتركة، حيث يقول كانط: لا بد أن تضع معاهدة السلام حداً للحرب، وهنا نفهم بعداً تحليلياً آخر ضمن هذه المعاهدة، وهو أن كانط يضع العقل بوصفه مشرعاً لوجوب وقف الحرب من خلال عدم اعتماد فكرة الحرب "حق" لأي شعب من الشعوب، وأن على الدولة أن يكون لها قانون دستوري تشريعي مستمد من الواجب الأخلاقي الذي يعمم ليوسع النطاق الخاص بالقانون السلمي، فيصبح هناك ما يسميه كانط "الحلف الاتحادي" الذي يضمن فكرة السلام الدائم بين الدول الجمهورية التي تنسجم مع هذا السلام.

وهنا نطرح السؤال التالي: في ضوء إقرار كانط للقانون الواجب في ظل وجود دول اتحادية حرة، كيف يتم التعامل مع الأقليات أو الأفراد الذين يختلفون في الأصول والهوية مع الشعوب الأصلية التي تعيش في الدولة؟

أن مسألة وجود الأجانب في الدولة لا بد أن تحتل أبرز الطروحات الممكنة في ضوء الفلسفة السياسية، حيث لا يختلف ذلك عن طروحات الفلسفة حول علاقة الأنا والآخر بوجه عام، وهنا يؤدي كانط مهمة تناول هذا الطرح من خلال المعاهدة النهائية الثالثة والتي تنص على ما يأتي: "حق النزيل الأجنبي، من حيث التشريع قائم على إكرام مثواه." (كانط، 1952، ص61).

إن كانط من خلال هذه المعاهدة أراد أمرين: الأول أن تنسجم رؤيته حول السلام العالمي الشامل والمستمر مع وجود أجانب في الدولة، وأن يشير إلى مهمة أخرى للسلام غير مهمة إلغاء الحرب والجيوش، والمقصود بتلك المهمة هو أن هناك سلاماً حادثاً مع الأجانب الموجودين بالدولة طالما أنهم مسالمون، وللدولة الحق في إعادتهم إلى دولهم طالما أن وجودهم قد يضر بوجود الدولة، وهذا ينطبق على التعاملات التجارية والاشتراك في الأرض كمساحة جغرافية من أجل تحقيق مصالح متبادلة، فالتعامل مع الأجنبي يقتضي تحقيق مصالح مشتركة تلزم أن يكون هناك اتفاق في المبادلة والمشاركة، بعيداً عن الأذى، وهنا يمكن القول: إن كانط قد حلل تلك المعاهدة بنفسه من خلال قوله: "إن فكرة التشريع العالمي لم تعد تبدو صورة خيالية للحق، بل إنها تبدو تكملة ضرورية لذلك القانون غير المكتوب، المشتمل على القانون المدني والشعوب، والذي ينبغي أن يرتفع إلى مرتبة القانون العام للإنسانية قاطبة، ومن ثم إلى السلام الدائم، الذي لا نستطيع أن نطمع في دوام الاقتراب منه إلا بذلك الشرط وحده."(كانط، 1952، ص65).

ومن خلال هذا التوجه الكانطي لا بد من الدخول إلى أطروحتنا الأساسية في هذا البحث وهي: البعد البراغماتي لمشروع كانط للسلام الدائم.

رابعاً: البراغماتية ومهمة السلام الكانطية.

دعونا في البداية ننقل وجهة نظر البراغماتية حول فكرة السلام بوجه عام، لا بد أن البراغماتية تحيل نفسها إلى طرح الأسئلة التي تتعلق بفكرة السلام، وإن السؤال الأول الذي تطرحه البراغماتية هنا هو: ما الجدوى؟ أي الجدوى العملية من طرح مفهوم السلام، وهل السلام مفهوم نقي تم طرحه فلسفياً من أجل إقامة بعد طوباوي ومثالي؟

تعنى الفلسفة البراغماتية بالنظر إلى النتائج العملية كمعيار للحقيقة، بمعنى أنها ترفض أي معيار تجريدي أو نظري يحدد صدق أو صحة الموضوع في المعرفة، إلا أن البراغماتية وفي منظورها العملي لا تقتصر فقط على قضية الحقيقة، وهو ما يؤكده وليم جيمس William James (1842-1910) "أن البراجماتية في الوقت الحاضر، أصبحت تستعمل في معنى أوسع من المشار إليه على اعتبار أنها تعنى نظرية معينة للحقيقة". (جيمس، 2008، ص76) وإنما يتم توظيف الفلسفة البراغماتية كمنهجية لتحديد سلوك الحياة، وأيضاً وضع القواعد التي يحتكم إليها البشر، فمن خلال الإشارة إلى "الطبيعة المتغيرة للبشر"[2] تنسجم البراغماتية مع فكرة أن السلام يحتل حالة موقتة، بالتالي لا يمكن ضمانه في المستقبل حيث "من الصعب إثبات أن الحرب يمكن القضاء عليها في المستقبل" (ديوي، 1963، ص136)،

هذه النظرة تدل على أن البراغماتية تنظر للسلام بمنطق التغير وليس بمنطق الثبات، أي ذلك الثبات الذي يتصدر مشروع السلام الدائم عند كانط، حيث يبرز كانط أن السلام لا بد أن يكون دائماً مع افتراض وجوبه على الرغم من التغير الذي يحكم الزمن والإنسان.

يوجهنا ذلك إلى القول: إن هناك فرقاً واضحاً ما بين البراغماتية والكانطية بالتحديد، على اعتبار أن الكانطية تمثل الاتجاه العقلاني النقدي الذي يعد أقرب إلى العقلانية في المعرفة، في حين تعتبر البراغماتية اتجاهاً عملياً أقرب إلى التجريبية بوصفها تنظر إلى الواقع كمعيار للحقيقة، وهو ما يؤدي إلى تشكيل حكم نهائي مفاده أن مشروع السلام الدائم عند كانط يحتمل ملامح عقلانية ومطلقة بصورة تنفي عنه أي إمكانية لتحققه على أرض الواقع، لذا قد يعدّ السؤال حول البعد البراغماتي للكانطية غير مشروع، إلا أن هذا الحكم لا يمكن أن يكون نهائياً، حيث إننا نفترض أن هناك وجوداً واضحاً لأبعاد براغماتية موجودة في الكانطية من خلال، مشروع السلام الدائم، حيث إنه لا يمكن النظر إلى طروحات كانط بمعزل تماماً عن الواقع، بسبب الاعتماد على فكرة أن كانط يُعنى بالمقاصد وليس بالنتائج.

لطالما كان المعيار البراغماتي قائماً على استمرارية الطرح نحو المستقبل، وبعيداً كل البعد عن أن يكون عقيدة أو أيدولوجيا صارمة، وهنا وضمن هذه المعايير تقول لنا البراغماتية ذلك انطلاقاً من وجهات نظر الفلاسفة

[2] انظر إلى كتاب الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، لجون ديوي حيث يوضح من خلاله الطبيعة المتغيرة للبشر من تغيير الدوافع، وتحقيق السلم، والحرب من وجهة نظر براغماتية.

البراغماتيين، أمثال وليم جيمس، جون ديوي ويتشارد رورتي الذين كان لهم توجه في رفض أي نوع من الشمولية، وأن يُستبدل بها النظر إلى الجانب اللانهائي من الطرح. (Garrison, and Giarell, 2004, p46)

أما عن فكرة السلام في مقابل الحرب، فإن البراغماتية تنظر إلى السلام بوصفه مفهوماً مقابلاً للحرب، وإن تحقيق السلام ينبغي أن يقوم على عدة أسس عملية ليتم تحقيقه، وأهم تلك الأسس هي البحث في العواقب بدل الأسباب، وإيجاد عامل أخلاقي فعال يصلح أن ينسجم مع القضايا الحادثة ولا يتوقف عند ظرف ماضي، وأن نظام الحرب، نظام مشوه وخبيث. (Garrison, and Giarell, 2004, p55).

إن تلك الأسس تهدف لأن تنقل لنا صورة واضحة عن السلام، أي تكون فكرة السلام منسجمة مع الظرف القائم على تحقيقه، وإن عملية تعميمه ليكون شاملاً ومطلقاً بعيدة عن الخبرة العملية والواقع، حيث إننا لا نستطيع أن نعوّل على الواقع المتغير والمستمر.

وهنا لا بد من القول: إنه بعيداً عن وجهة نظر البراغماتية حول مفهوم السلام بشكل منفرد، فإن مشروع السلام الدائم عند كانط وإن كان يبدو لنا مشروعاً كلياً ومطلقاً ويجب أن يصلح لكل زمان ومكان كقانون شامل وله بنود ومنبثقاً من الواجب الأخلاقي، فإن هناك تفصيلات في بنود مشروع السلام الدائم تحمل أبعاداً براغماتية، وتحمل قيمة عملية على صعيد الواقع، وهي مستمدة من توضيحات لازمة في هذا السياق توضح وجهة النظر الكانطية حول الاعتقاد العملي Pragmatic belief إذ إن كانط يقوم في طروحاته على تأسيس الاستخدام الفعلي للوسائل المتاحة للأفعال الإنسانية، بمعنى ما يجب أن يكون الإنسان مستعداً للتصرف وفقاً له (Willaschek, 2016, p135).

نلمس بوساطة ذلك ذات الجذور البراغماتية التي وظفها بيرس وجيمس في أفكارهما حول البراغماتية، بحيث إن عملية التصرف بناء على ما يتم الاعتقاد به يعد نموذجاً عملياً أو ما يمكن أن نطلق عليه "نموذجاً تمكينياً للنجاح العملي" "enabilling condition of practical success" (Willaschek, 2016, p138) وهو ما يؤدي إلى التطبيق العلمي، حيث لا يمكن أن نفترض وجود تطبيق عملي بمنأىً عن القواعد المؤسسة لهذا العمل؛ لأن الأفعال العقلانية دلالة واضحة على المبادئ التي أدت إلى السلوك العلمي، وهو ما يمكن أن نراهن عليه في مشروع السلام الدائم، الذي يتبنى استعداداً براغماتياً لتحقيق الخير الأسمى ولكن بصورة واقعية مرتبطة بالعمل.

في مشروع السلام الدائم يعزز كانط المبادئ والقواعد في صورة اختزالية للتطبيق العلمي، مستمداً إمكانية ذلك من عدة اعتبارات أهمها:

أن السلام بوصفه صيغة مرضية للنفس البشرية تفترض الاعتقاد أن السلام حالة فطرية تنسجم مع الطبيعة الإنسانية التي تميل إلى السلام أكثر من الحرب، إلا أن كانط لا يقر بهذا الطرح حيث إنه يقول: "إن حالة السلام بين أناس يعيشون جنباً إلى جنب ليست حالة فطرية؛ إذ إن الحالة الفطرية أدنى إلى أن تكون حالة حرب"(كانط، 1952، ص38)، وهنا يبرز موقف كانط في هذا الطرح واقعية موجودة لا تنسجم مع المبادئ المطلقة أو المثالية لحالة السلام، وهو ما يعبر عن بعد براغماتي في المبدأ، يؤدي إلى التنبؤ بالفعل، وهو عنصر أساسي للتفكير البراغماتي.

أعاد كانط بناء مفاهيم مثل الحرية، الحق، الاتحاد، السلام، بما ينسجم مع مشروعه، وهذه الإعادة لا بد أنها بمثابة بعد عملي يحقق شروط التغير، حيث لم يبق كانط على تلك المفاهيم دون توظيفها في سياقات عملية تحاكي منطق الشعوب وعلاقتها بالسلطة؛ لأن كانط يدرك تماماً أنه يتعامل مع الواقع في ضوء العمل السياسي، ومحاكاة تلك المفاهيم للواقع وظروفه، وقد وجدناه يقوم بتوظيفات عملية في داخل المشروع يمكن اعتبارها تنبؤية، ففي المادة النهائية لتحقيق السلام الدائم، يبرز كانط ما يسميه حق النزيل الأجنبي، وهو ما يمكن مقاربته في عالمنا المعاصر بما يسمى حقوق اللاجئين، حيث يعبر كانط عن هذا الحق من خلال الإشارة إلى أهمية إيواء الأجنبي في الدولة ما لم يضر ذلك بمصلحة تلك الدولة، حيث يحق له ما يسمى حق الزيارة، أي أن يجعل له حقاً بعضويته في المجتمع، بمقتضى مشاركته في ملكية الأرض.(كانط، 1952، ص60).

على الرغم من حضور فلسفة كانط الأخلاقية، في تصوراته وطروحاته إلا أنه أدرك أنها لا يمكن أن تساعد في تصوراته

السياسية، حيث كانت كيفية أجبار الإنسان على أن يكون مواطناً صالحاً حتى لو لم يكن كذلك، مهمة صعبة، وأن الدستور الجيد لا ينبغي أن يكون متوقعاً من الأخلاق(Beiner, 1992, p17). هذه الفكرة توحي بملامح كانط العملية، حيث يعنى في هذا السياق بسلطة الواقع في تحديد معيار المواطن الصالح، بعيداً عن تجريدات المبادئ الأخلاقية.

وهنا استطاع كانط أن يؤسس لأهم الاتفاقات الإنسانية والتي عنونها بـ" معاهدة السلام"، إذ إن الأخيرة لم تتوقف عن أن تكون سيدة الموقف في كثير من النزاعات الدولية التي شهدناها في هذا العصر، وهذا يدل على أن كانط قد حقق المعيار البراغماتي الذي يقتضي أن تكون الطروحات والأفكار تحمل طابعاً مستقبلياً ومستمراً، وذا أثر، وهو ما حاول *هابرماس* Jürgen Habermas(1929) الإشارة إليه من خلال تصور مفاهيمه الأساسية حول السيادة الخارجية وتحول العلاقات الدولية والسيادة الداخلية للدول والهيكلة التراتبية الجديدة للمجتمع العالمي وما يرتبط بها من مخاطر كونية تتطلب مفهوماً جديدا للسلم العالمي[3].

بالتالي شكّل كانط المبدأ والأساس النظري لاتحاد دولي يرفض النزاعات وينادي بحقوق الإنسان لتحقيق السلام الدائم وهو ما يعرف الآن بـ"هيئة الأمم المتحدة"، الأمر الذي لايمكن أن نتجاهله من خلال بنود المشروع، إذ حقق هذا المبدأ وجوداً عملياً قوياً لا يمكن إنكاره، وهو منسجم مع متطلبات العصر بشكل واضح.

من خلال ما سبق نستنتج أن مشروع السلام الدائم قد نجح في أن يوضع على المحك البراغماتي، وأن يخضع لاستنتاجات، ولكن لايمكن تجاهل أن مشروع السلام الكانطي بقي موضع انتقاد وترجيح ما بين المثالية والعملية، وتالياً نتدرج بخاتمة نقدية توضح ذلك.

خاتمة نقدية:

نستنتج أن مشروع السلام الدائم قد نجح في أن يوضع على المحك البراغماتي، وأن يخضع لاستنتاجات، ولكن لا يمكن تجاهل أن مشروع السلام الكانطي بقي موضع انتقاد وترجيح ما بين المثالية والعملية، وكما يصف فيتجنشتين الخير المطلق يقول: "إذا كان وضعاً واقعياً يمكن وصفه، فسيكون ذلك الذي يحققه أي شخص بصورة ضرورية، بغض النظر عن ذوقه وميوله، أو يشعر بالذنب عند عدم تحقيقه، أريد أن أقول: إن مثل هذا الوضع الواقعي هو وهم، لا يوجد أي وضع واقعي يمتلك في ذاته، ما أود أن أسميه القوة القسرية للحكم المطلق" (فتجنشتين، 2017، ص6). وهو ما يحيلنا إلى القول: إنه لا يوجد حكم نهائي أو مطلق فيما يتعلق بالنتائج العملية لمشروع كانط، إذ إنه لا يخلو من المواطن المثالية التي لا تحمل أي بعد براغماتي لبنود المشروع:

- إن مشروع كانط لم يحتوِ الواقع بتعقيداته، فإشكالية الواقع السياسي تقتصر على ترجيح كفة الحكم الجمهوري على الملكي. إن الواقع السياسي يقول أكثر من ذلك، أي أن هناك صراعات دائمة بين العام والخاص، التعددية، النزاعات التاريخية التراكمية، وهنا لابد من السؤال التالي: كيف يمكن أن نقيم القضية الفلسطينية والنزاع العربي الإسرائيلي في ضوء مشروع السلام الدائم؟

لا بد أن ذلك التقييم يخسر، على الرغم من ابتداع معاهدات السلام، إلا أن الشعوب العربية لا ترى أي "حق" في هذا السلام، وأن هناك حرباً تخاض ضدهم بشكل مستمر، كيف يمكن القول بسلام شامل ومطلق وكأنه إطار نظري يسقط على قضايا متشعبة، ليست متعلقة بنزاع حادث، وإنما بنزاع تاريخي قائم على تراكم ثقافي وديني ونفسي، أشد تعقيداً من تطويعه ضمن سياق فكرة اتحاد الدول الحرة، أو تغيير شكل الحكم إلى حكم جمهوي، والحق أننا لم نجد في مشروع السلام الدائم عند كانط أي قيمة عملية تنسجم مع هذه الإشكالية السرمدية، ولا يمكن إنكار أن كانط قد كان صريحاً في تلك النقطة، إذ إنه أكد من خلال المشروع أن تحقيق سلام دائم لجميع الأمم، غاية لا يمكن تحقيقها.

- اتباع قوانين الواجب الأخلاقي، الذي يبرر وجود سلام دائم بين الدول، لا بد أنه أقرب من الإرادة المقدسة

[3] يحقق هابرماس هذه القراءة لمشروع السلام الدائم عند كانط حيث يستعيد هابرماس الأطروحة الكانطية حول القانون من حيث هو نقطة التأليف بين الطبيعة والحرية، بين الفلسفة النظرية والعملية، أو -بلغة هابرماس- بين "الوقائع والمعايير"، بين الاستقلالية الفردية والاستقلالية الجماعية، بين حقوق الإنسان والسيادة الشعبية، وبين الأخلاق العقلية والقانون الوضعي. (انظر: ولد أباه، 2017).

والنظرة الطوباوية، فلا يمكن القول: إن الفرد على وجه الخصوص ممكن أن يصوغ لنفسه قوانينه الخاصة بوصفها واجباً عقلياً من دون خرقها، كيف يمكن أن يتم ذلك على شعوب ودول بأكملها، خصوصاً ونحن نتحدث عن واقع سياسي معقد من الأساس ومستمر في تعقيده.

في محاولة اختزال كل ما تم طرحه من خلال البحث لا بد من القول: إن مشروع السلام الدائم نص يستحق أن يبحث بوصفه جهداً فلسفياً عقلانياً، وإن كنا نتفق أو نختلف معه، فقد نجح في أن يكون محتوىً أصيلاً، أي قابلاً لأن يوضع على محك النقد والتقييم.

ولا يخفى أن المحك البراغماتي ليس محكاً سهلاً، وأن بعده التقييمي يحتاج منا جرأة في وضع نص عقلاني صارم كنص كانط، ولو كان كانط على قيد الحياة لربما كان رفض هذه المحاولة برمتها، إلا أننا نقول إن عملية الاختبار أو الإخضاع العملي للطروحات الفلسفية الصارمة يحتاج منا أن نراعي آلية الحكم النهائي على الطرح بشكل دقيق، فلا يمكن القول: إن هناك أي حكم بالقبول أو الرفض لمشروع كانط بناء على البعد البراغماتي الذي ألصقناه به.

إن البعد البراغماتي لبنود معاهدة كانط في السلام الدائم، اقتضى أن نبحث في إمكانية تحقق بنود المعاهدات عملياً من جهة وعدم تحققها من جهة أخرى، ووجدنا أن مشروع كانط قد احتمل الأمرين، مما جعله محطاً لأنظار وإمكانية توظيفه في محاولة بحثية جديدة، تضعه أمام مشاريع سياسية أخرى مثل مشروع" العدالة" عند جون رولز على سبيل المثال.

لقد كان كانط متفائلاً ومتشائماً في الآن نفسه من خلال بنود المعاهدة، حيث لاحظنا أن تفاؤله كان نتيجة لضروب المثالية التي انكشفت في بعض مواضع البنود، أما عن تشاؤمه فقد كان نتيجة انكشاف ضروب الواقعية في مواضع أخرى، وهذا إن دل على شيء، فهو أن كانط قد ركز مشروعه بجديته المعهودة بما ينسجم مع نسقه الفلسفي.

وأخيراً نقول: إن الحرب شر تحقق في هذا العالم، وإن أي طرح ينفي أو يهاجم أو يناقض هذا الشر، لا بد أن يكون طرحاً قابلاً لأن يتم الأخذ به وقراءته قراءة واقعية، ومشروع للسلام الدائم استحق أن يكون محطاً لمحاولة بحثية طموحة لأن يتم تطويرها مستقبلاً أكاديمياً ومعرفياً.

المصادر والمراجع

كانط، إ. (1952)، ***مشروع للسلام الدائم***، ترجمة: عثمان أمين، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

روسو، ج. ج. (2015). ***العقد الاجتماعي***، ترجمة: عادل زعيتر، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع.

الفارابي، م. (2016). ***آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها***، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي.

ديوي، ج. (1963). ***الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني***، ترجمة: محمد لبيب النجيمي، القاهرة، مؤسسة نجيب فرانكلين.

جيمس، و. (2008)، ***البراغماتية***، ترجمة: زكي نجيب محمود، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

رولز، ج. (2007)، ***قانون الشعوب***، ترجمة: محمد خليل، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

فتجنشتين، ل. (2017)، ***محاضرة عن علم الأخلاق***، ترجمة: علي رضا، الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

ولد أباه، ا. (2017)، نظرية كانط في السلام الدائم: قراءة يورغن هابرماس، سلطنة عمان، ***مجلة التفاهم***، **12**(43)، 1-21.

REFERECNES

Beiner, R. (1992), ***Hannah Arendt: Lectures on Kant's political philosophy***. Chicago: The University of Chicago Press.

Gallie, W. B. (2009), ***Philosophers of Peace and War***. Cambridge: Cambridge University Press.

Garrison, J., & Giarelli, J. (2004), "Pragmatism and peace", ***Journal of Thought***, **39**(3) (Fall 2004), pp. 43-58.

Weble, C., & Kaba, M. (2020), "Definition of Peace", in R. Edsfourth (Edt.), ***A Cultural History of Peace in the Modern Age***, London: Bloomsbury.

Willaschek, M. (2016), "Kant and Peirce on Belief", in Gava, G. and R. Stern (Edts.), Pragmatism, Kant, and Trascendental Philosophy, Oxon: Routledge.

The Pragmatic Dimension of Perpetual Peace by Immanuel Kant

Duaa Nassar[1], Suzan Aldababsa[2]

ABSTRACT

This paper adopts a study and analysis of the pragmatic dimension of Immanuel Kant's "Perpetual Peace" project (1724-1804). It involves tracking the texts of the project with an analytical task aimed at reaching the practical feasibility of Kant's peace principles, which focus on grounding the idea of peace through the connection between normative principles and political action. The paper addresses a fundamental issue: the possibility of a pragmatic dimension in Kant's Perpetual Peace project, despite the implications associated with Kant's rationalist propositions, which appear to be more concerned with theoretical concerns rather than practical outcomes. This is particularly challenging given Kant's primary focus on intentions rather than results, posing a challenge in proving that Kant, in his political project, managed to achieve harmony between the foundational rules for global peace and their practical impacts. The paper aims to undertake an analytical task of Kant's peace project texts, shedding light on Kant's political intentions through these texts and revealing the moral spirit embedded within them, despite these rules being considered rational in nature. The paper concludes that there is a pragmatic dimension to Kant's Perpetual Peace project, demonstrating that it has become a viable field for moral duty with possible practical results on the political and international levels.

Keywords: Peace, Perpetual Peace, Kant, Pragmatism.

[1] Part-time Lecturer, The University of Jordan, duaanassar8@gmail.com
[2] Part-time Lecturer, The University of Jordan, s.talouza@gmail.com

Received on 6/11/2023. Accepted for Publication on 22/2/2024.